

هَوَلُ أُرْبَةِ الْبِقَافَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَعَاصِرَةِ

بِقَامِ عِدْنَاتِ اِبْرَاهِيمِ

وان الذود عن الحمى قد اذكى دائما وابسدا نفوس العرب المؤمنين :
اذكروا صلاح الدين وابتعثوا عن جذور الثورة الجزائرية وعن أسباب
الصمود وعن أسباب الاستبسال .
حتى نناقض قضايا العالم المعاصرة ، علينا بنناق قضايانا ، بالتعرف
على ابعادها ومعانيها الحقيقية ، وهذا يكون بنفض غبار الفموض عنها
وازاحة الحجب والاسرار والطلاسم .

ان نقصد الفكر الديني (1) ، هذا من واجبنا ، لكن من واجبنا ايضا
ان نبحت بحرية وموضوعية ، وبعيدا عن التجريح وعن العجلة وعن
ترجمة التماييز والنتائج الجاهزة ، من واجبنا ان نبحت عن آثار ذلك
الفكر في سلوكنا وفي تركيب شخصياتنا وفي نظرنا للحياة وما بعد
الحياة ، ومن واجبنا ايضا الجري وراء النقد الواضح والبحث عن
اسباب البناء ، لانه لا يكفي ان يكون النقد صحيحا ولا يكفي ان يكون
قيما بل يجب ان يملك اسباب التحقيق وان يشير للمبدل ...
انه لا يكفي نصح البدوي بدلق ما يحمله من المياه الكدرة ، بل
عليك بالاشارة الى المياه الصافية ...

حتى نقصد ما يفعل في حياتنا وما يؤثر على حاضرنا وعلى مستقبلنا
من مؤسسات اجتماعية وسواها ، وحتى يأتي نقدنا واضحا ومتناسكا ،
منطقيا او جدليا ... يجدر بنا الهبوط من سماء المجدرات الى ارض
الواقع المحسوس - هذه ايضا فكرة مادية وجدلية - لكنها فكرة تكلف
الكثير من الجهود والكثير من المماناة لانها تعني عدم الاكتفاء بالافكار
المكتملة والمكتفية ، وهي تعني عدم الرضى بكل ما قاله الآخرون ..
ما قالوه عن الدين والدولة ، وعن انفصال الروح الدينية عن الروح
القومية وانفصال هذه عن الروح الثورية الاشتراكية وما لست
أدري ...

اذا اردنا دراسة العلاقة ما بين الدين والقومية ، و اردنا ان نكون
دراستنا علمية وموضوعية بل وتجريبية ، وجب علينا دراسة الاسلام
والعروبة كقيم ومؤسسات اجتماعية على ضوء التاريخ العربي - الاسلامي
والاعتماد على مناهج البحث العلمي الحديث واللجوء احيانا للمقارنة
وغالبا للخصائص الذاتية :

هناك علاقة خاصة ومتميزة ما بين الاسلام والعروبة ، كما ان هناك
علاقة خاصة ومتميزة ما بين ايطاليا والكاثوليكية .. بسل هي عندنا
اقوى واعقق وابعد فعلا في حياتنا وفي حياة مؤسساتنا الاجتماعية
والثقافية .

١ - اشارة الى كتاب جلال صادق العظم : نقد الفكر الديني .

الثقافة العربية المعاصرة في ازمة ، يدعوها بعضهم بالازمة
الكيانية : هل هناك ثقافة عربية معاصرة أم ان ما ندعوه هكذا لا يتعدى
حدود الصدى ، صدى الثقافات العالمية الحية التي عايش مشاكل
الآخرين ، وصدى التراث الثقافي العربي الذي حاكى حياة الاجداد
وعايش مشاكلهم ؟

((هذا الشبح الذي أسميه الفكر العربي المعاصر ، أنهمه ، وانا
جزء منه ، بأنه عاجز وجاهل ، لا يعرف احدا ، لا العربي ولا غير
العربي ، لا يقدر ان يطول احدا لا العربي ولا غير العربي : أنهمه انه
تابع ومسحوق)) (١) .

هذا الاتهام العنيف والشامل بوجهه نافذ آخر وكانه به يريد
الاصرار على متابعة الدعوى مع اختلاف - على ما يبدو - فسي المنطق
وفي الغاية :

((اني انهم ثقافتنا العربية المعاصرة بالحيرة والتخلف وانعدام
الخصائص الذاتية وفقدان القدرة على عناق قضايانا الكبرى)) (٢) .
هذا الاتهام بالمعجز والانسحاق بوجهه كذلك شاعر معاصر لكسل
الفكر العربي المعاصر يحمل الكثير من الصدق لكنه يجور كل الجور !
« انعي لكم ، يا اصدقائي ، اللغة القديمة

والكتب القديمة

انعي لكم ..

كلامنا المثقوب كالأحذية القديمة

ومفردات العهر ، والهجاء ، والشتم

انعي لكم .. انعي لكم ..

نهاية الفكر الذي قاد الى الهزيمة » (٣)

فكر من هو ذلك الذي قادنا الى الهزيمة ؟ مفردات من هي تلك
المفردات العاهرة ؟ واللغة .. والكتب .. ؟

فكرنا الديني الذي ابفانا في الجوامع وحشنا على تشطير الابيات
وطلب النصر من الخالق ؟

اذا كان هذا ما يريد قوله نزار الشاعر فقد اقلقه الاحساس
العميق بالمأساة ، وجعله هو ايضا بجور كثيرا على الفكر العربي المعاصر .
اذا كانت الصلاة من اركان الاسلام فان الجهاد من اعمدة الدين ،

١ - ادونيس : بيان ه حزيران ١٩٦٧ . الآداب (٧ - ٨) ١٩٦٧ .

٢ - محيي الدين اسماعيل : اني انهم ثقافتنا المعاصرة . الآداب

(٣) ١٩٦٨ .

٣ - نزار قباني : هوامش .. على دفتر النكسة .

هذه العلاقة الخاصة مابين الاسلام والقومية العربية لا تنفى امكانية التعرض للاسلام بالدرس والنقد والايضاح ، كما انها لا تنفى عدم امكانية قيام القومية العربية على غير الاسس الاسلامية او الدينية، لكنها تعني حاجة النقاد الملحة للرجوع الى النظم العام المشترك لوضعنا الحضارية (الاقتصادية والاجتماعية والثقافية) وعدم الاكتفاء بالتحليل التجريبي لبعض الاجزاء والظواهر المبعثرة .

حاجتنا للافكار الواضحة والمربطة بواقعنا تفرض علينا البحث عن بنى شخصية مجتمعا العربي الخاصة على ضوء المفاهيم الانسانية العامة .

اتراني بحاجة للتنبيه الى ان هذا لا يعني نقض العقائد الانسانية كما انه لا يعني رفض الاخذ بالمناهج العلمية والعالية ؟ . ان بعض البلبلة الفكرية في بعض الدراسات التي يصفها اصحابها (بالدراسات الماركسية مثلا) لا تأتي من خطأ في التحليل الماركسي بل من خطأ اساسي يكن في الاخذ بالنتائج والاكتفاء بترجمة التعابير وأحيانا الشعارات المرحلية والمحلية .

لقد كانت مشاكل الشرق هامشية بالنسبة لماركس ولم تشغل الا حيزا ضيقا من وقته ومن تفكيره ، ثم سيطرت على الدراسات الماركسية لفضايا اشرق روح التاريخ الحداثي ورغبة التحليل السياسي والاقتصادي بدل التاريخ الحضاري والتحليل البيوي كما فعل ماركس بالنسبة للمجتمعات الغربية (1) .

هذه الناحية الى جانب نواح اخرى ، تجعل من واجب المفكرين العرب الاخذ بالمنهج العلمي الماركسي كمنطلق للتحليل والدراسة وعدم الانغلاق في انتنتاج المرتبطة الى حد بعيد بالمجتمعات الصناعية الاوروبية .

ما قلناه عن ماركس والماركسية (2) ينطبق على افكار واشخاص ادم سميث وسبنسر واميل دوركايم وماكس فيبر وسواهم من علماء الاقتصاد والاجتماع الاوروبيين : لقد انطلقوا جميعا من معطيات الفكر الاوروبي ، ووجهوا معظم جهودهم واهتمامهم نحو تحليل البنى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمجتمعات الغربية ثم استخلصوا قواعد وقوانين ونظريات اسفخوا عليها اعتبارا صفة (عالية) وهي تعني لدى العديد من علماء الغرب : الاوروبية .

اننا نقول بدون مكابرة جوفاء ، ومن غير دعوة للايفال في مفارقات الماضي الجيد ، او دعوة للانغلاق الخانق على الشخصية الاصلية ... نقول ببساطة اننا ما لم تكف عن اجترار ما يفرزه الذهن الاوروبي ، وما لم نخرج من دور الانفعال باقوال وافعال الآخرين ، فسيظل واقفنا وسيظل فكرنا في وضع التابع والمسحوق ، وستظل صرخة الشاعر تحمل بعض الحوار الى جانب الكثير من الصدق :

خلاصة القضية

توجز في عبارته

لقد لبسنا قشرة الحضارة

واروح جاهلية (3)

حكيت عن جور النقاد ، واسهيت بالحديث عن النقد الجائر ، ومن الطبيعي ان نتحدث عن جور الاحداث على النقاد وغير النقاد ، وعن طفيان الموجات الدعائية التابعة للسلطان السياسي او للسلطان الاقتصادي او للثنيين معا ... ومن الضروري التعرض لوضع الكتاب المتمادين في احلامهم اللساء الناعمة ، ولوضع الكتاب الفارقين بالتصفيق للانتصارات (التي تروق لهم وتدر عليهم) وللمنقطعين للتامل السكوني البليد للاحداث وللانتظار الصابر للمعجزات ...

١ - اهتم ماركس بالقضية الهندية لارتباطها المباشر بمستقبل

الراسمالية في بريطانيا ...

٢ - تظل الماركسية اكثر علمانية وموضوعية وعالمية من النظريات

الاوروبية الاخرى .

٣ - نزار قباني

هؤلاء - من ذوي الابدني المرفقة في نظافتها - يعيشون على هامش الحياة وما يعطونه لا يعتمدى الصدى وان حسن لا يعتمدى حدود السراب . لكن يبقى رغم وجود الهوامش ورغم كل دوافع السخط وكل دوافع الرفض ، ان هذا الاتهام بالحيرة والتخلف وانعدام الذات ، والذي يوجه للثقافة العربية المعاصرة ، كل الثقافة العربية المعاصرة ، جائر كل الجور... ان هذا الحكم بالاعدام يفنق الكثير من اصول المحاكمة الفكرية ، انه يحتاج الى مستندات اكثر تعبيراً واكثر شمولاً ، وهو يحتاج قبل كل شيء للخروج من عالم الاحكام المطلقة - احدى سمات الدهن السحري - عالم الملاك والسيطان ، الخير والشر ، السماء والارض ، الروح والجسد ، الشرق والغرب ، الرجل والمرأة ...

يعرف العديد من الابداء والنقاد ومن غير الابداء والنقاد ان بعض الخير يمكن في الشر وان بعض الشر ما يتداخل مع الخلايا الخيرة .

ان يكون في ادبنا الحديث الكثير من الاتباع والمترتبة والادعاء هذا صحيح ، وان يكون في حنايا ثقافتنا المعاصرة الكثير من الفموض والغامضين ، والكثير من الفراغ والفارغين والكثير من الشرثرة ومن التصفيق والتطييل والرقص على الحبال .. هذا ايضا صحيح ، وان يكثر في ثقافتنا المعاصرة النقل على فلة الابداع ، وان تشيع لدى العديد من مثقفينا المعاصرين عادة الكسل الفكري رغم الحاح الحاجة للتفكير الجاد الهادف ، وان يحاكي بعض الكبار من ادبائنا سطحية وتسطح بعض نزوات الابداء الاوروبيين وبعض طفرات الادب الغربي ... هذا ايضا مما يؤخذ على ثقافتنا المعاصرة .

وان تنزل النازلة على ادبنا الحديث وعلى نافوخ ثقافتنا المعاصرة وان يسرق الحكام - ضمن كل ماسرفوه - نصف حرية المثقفين وان يتأمر رجال المال على نصف الحرية الباقى ..

كل هذا صحيح ، بل فوق الصحيح .

لكن ، ولاننا لانريد الجور على الينايبع المنبجسة في سهوب واقفنا المرير ، ولاننا لانحب الضرب المتواصل في الصحراء اليباب ، ولاننا نراكم امل البحث بحرية وموضوعية واخلاص عن جذور ثقافتنا الحديثة ... من اجل كل هذا نقول ان في فكرنا العربي المعاصر منارات بقيت تبعث الضوء رغم حلقة الليل الطويل ، وان في ثقافتنا المعاصرة مفكرين وادباء وفنانين حافظوا على قدسية رسالتهم حافظهم على يؤبؤ العين . ما الذي نقوله عن الذين خرجوا بثقافتنا من مستنقعات القرون الحالكة نحو مطالع النور او ما يقربنا من مطالع النور ؟

كيف نعوهم وقد كانوا رواد دروب وكانوا طلاب حقيقة وكانوا حماة للناس وللديار ؟!

انلصق بهم تهمة الانفلاق وقصر الافاق ؟ وقد جابوا بلادهم ، وارتحلوا نحو بلاد الاخرين ، حاكوا الحضارات ، وامعنوا النظر بنظم العيش ونظم الحكم ونظم التفكير .

انتمتتم بالسلفية ونجمهم تحت راية الرجعية وقد اعتقوا عقولهم وعملوا على اعتناق عقول الاخرين من عمارة التقليد الاعمى ومن آفة الرجوع الدائم نحو الوراء :

يا قوم

وقاكم الله من الشر .. انتم بعميدون عن مفاخر الابداع وشرف القدوة ، مبتلون ببدء التقليد والتبعية في كل فكر وعمل ، وبداء الحرص على كل عتيق .. فلماذا تقلدون اجدادكم في الخرافات والامسور السافلات ولا تقلدونهم في محامدهم (4) ؟

لقد وثب هؤلاء بفكرهم وخيالهم فوق المرحلة الحالكة ، وفوق قشور الياس وقشور التفاهات ، وثبوا يستنطقون المستقبل ، يستشرفون بالرجاء ، يسكبونه للنفوس العطشى ، ان من دلائل الثقافة ومن شروطها امتلاك قدرة الوثوب نحو المستقبل ، وقدرة الوثوب وقدرة التخطيط الواعي للخاضر لا تعنيان الهيام وراء الاحلام الضبابية ، بل تعنيان اتقان قراءة الحاضر بوضوح ومن ثم استخلاص الرؤيا المستقبلية .

٤ - عبدالرحمن الكواكبي : داء التقليد .

من هذه الزاوية كان رفاة الطهطاوي وكان عبدالرحمن الكواكبي وكان اديب اسحق مثال المثقف الواعي لشؤون مجتمعه وقضاياها، وكان مثال المثقف العامل للتوضيح وارساء قواعد المستقبل الافضل .

نحن نلهج اليوم بذكر الحرية ونحكي عن محتنتها في بلادنا ، ونحن نحكي عن القومية وعن الوحدة القومية ونحن نحكي عن المقاومة وعن حق الشعوب في تقرير المصير ، ترانا نقول شيئا جديدا على ادبنا الحديث ونفتتح معارك لم تعرفها ثقافتنا المعاصرة ؟

((الاستبداد داء ، اشد وطاة من الوباء ، اكثر هولاء من الحريق ، اعظم تخريبا من السيل ، اذل للنفوس من السؤال ..

الاستبداد يقلب الحقائق في الاذهان حتى انه قد مكن بعض القياصرة والملوك الاولين من التلاعب بالاديان تايدا لاستبدهم ، وقد وضع الناس الحكومات لاجل خدمتهم ، والاستبداد قلب الموضوع فجعل الرعية خادمة للرعاة» (١)

((قتل امرىء في غابة جريمة لا تفتنر

وقتل شعيب آمن مسالة فيها نظر

والحق للقوة لا يعطاه الا من ظفر (٢)

... والنشيد الذي انشده الشباب العربي وهو يعاني من سطوة السلطان ومن شيوع الجهل ومن مطاردة الطفيلان لكل حبة نسور تلوح في عين باحث عن دروب الخلاص :

لغة العرب الذكرينا واندبي مافات

كيف نسالك وفينا نفحة الحياة

يا بني الشام ومصر وبني العراق

هل نسيتم ذكر عهد طبوق الافاق

كنتم فيما تقضى بهجة الازمان

فلماذا اليوم نرضى حالة الهوان (٣)

كيف نقيم هذه الاشعار التي صارت نشيدا شعبيا ؟ ما الذي نقوله عن القصيدة الصارخة ، اقصد تلك القصيدة التي ارادها الشيخ اليازجي صوتا يوقظ النيام، ونبرة تحرك ما رقد من شاعر المروءة والنخوة والعزة القومية ؟

تبهوا واستبقوا ايها العرب فقد طمى الركب حتى غاصت الركب واشعار الذي غادر مكرها وطنه لكنه لم يكف عن محاكاته وعن التزام قضاياها ومعاونة ما ينزل به :

العين بعد فراقها الوطننا لاساكننا الفت ولا سكننا

ريانة بالدمع اقلقتها الا تحس كرى ولا وسنا

كانت ترى في كل سائجة حسنا فباتت لا ترى حسنا

والقلب لولا انه صعدت انكرته وشككت فيه انسا

... ياموطننا عبث الزمان به من ذا الذي اقرى بك الزمانا

عطفوا عليك فاوسعوك اذى وهو يسمون الاذى مننا

وحنوا عليك فجردوا قضبا مسنونة وتقدموا بقنا

باطائرا غنى على غصن والنبيل يسقى ذلك الفصنا

اذكرتني مالست ناسيه ولرب ذكرى جددت حزنا

اذكرتني بردى وواديه والظير احادا به وثنى

ان القريب معذب ابدا ان حل لم ينعم وان ظمنا

لو صلوا لي موطني وثنا لهممت اعبد ذلك الوثنا (٤)

ترانا ونحن نشيد هذه الاشعار ، نحس حاجة الرجوع الى علم الجمال عند الاغريق او عند هيجل وكرونتشه ؟ ام ترانا نحس حاجة المقارنة مع قصائد شعراء اوربوا قصائد الوار وآرافون واغانى اوركا ؟

١ - الكواكبي : الاستبداد

٢ - اديب اسحق : الحق للقوة

٣ - نشيد احدى الجمعيات العربية في الشام في مطلع القرن العشرين ...

٤ - من قصيدة (وطني) لخيرالدين الزركلي نظمت ايام الاحتلال الفرنسي لسوريا .

اننا نطرق ابواب موضوع شائك ومشوب بكثير من المشاحنات وكثير من الدراسات الموضوعية وغير الموضوعية : الشعر الخطابي ... قصائد المنابر ... شعراء اللفظة المنتقاة .. قصائد القوافي التسي تيرق حيننا وتفوق في اغلب الاحيان ... ثم قصائد المناسبات ..

وهنا ايضا نحتاج للكثير من الموضوعية حتى لانفرق في ضباب الاحكام العامة ، وحتى لانصير ضحايا تلك (الشائنية) الفاجعة : الخير والشر ، الشعر الكلاسيكي والشعر الحديث ، السلفي المقلد والمصري المجدد ، انسطحي والعميق ، شعر الخاصة وشعر الجماهير ...

هذه المقابلة المبنية على احكام مسبقة ومسحورة ، تفقدنا حرية الذهن الناقد ، كما انها تفقدنا روعة تنوق القصيدة بعيدا عن التعقيدات القديمة والحديثة والخارجة غالبا عن المفاهيم الجمالية ، اليس من الافضل والاجمل ان تكف عن خنق القصيدة بكثرة مانقوله عنها وكثرة مانطلبه منها وكثرة مما نلصق عليها من تعاريف هائمة واخرى مقصودة الجناح واخرى يتن من جورها الجمال الهارب من التعاريف ؟

اذا كان الشعر ذلك الكائن المتحرك والمفاجيء فمن حقنا ان نحار امام تعريف ذلك الكائن : تراه وليد حركة مستمرة ام هو مفاجاة بعد سكونية ؟ اهو تجدد مستمر ام استمرار مجدد ؟

على ابواب يافا يا احبائي (٥)

وفي فوضى حظام الدور ، بين الردم والشوك

وقفت وقلت للعينين :

قفا نيك

على اطلال من رحلوا وفاتوها

تنادي من بناها السدار

وتنمي من بناها الدار

.....

احبائي ، مصاييح الدجى ، يا اخوتي في الجرح

وياسر الخميرة ، يا بذار القمح

يموت هنا ليعطينا

ويعطينا

ويعطينا

على طرفاتكم امضي

وها انا بين اعينكم

الملمها وامسحها دموع الامس

وازرع مثلكم قدمي في وطني وفي ارضي

وازرع مثلكم عيني في ديوب السنن والشمس

فدوى طوقان لم تخضع هنا لاوزان الخليل كما فعل الزركلي وكما

يفعل بدوي الجبل بكثير من العذوبة وكثير من الفنائية وكثير من

الحس الجمالي المعافى من عاهة الاجترار ، لكنها تحافظ على التنفيلة

واحيانا على القافية ، وهي تعني بالفنائية ، هذه الفنائية ليست صنوا

للطرب او التطريب ، انها قدرة جذب وايحاء وايفاظ والطرب قدرة

جذب وتخدير وتنويم ، وهي ، يعني الفنائية ، قدرة تطويع اللفة قصد

خلق المناخات الملائمة للموضوع .

هذه الفنائية نجدها في اشعار البحتري والمتنبي وهي تطالعنا طالما

ننقل الخطو في حدائق بدوي الجبل التي ترشقنا بالطيب والنور وهي

تطالعنا مع عنادل شوقي وامين نخله وصرخات الرصافي والجواهري ..

لكنها - وهنا المشكلة - تشيع في حنايا شعرنا العربي الحديث ،

انها تنطلق من شلالات عمر ابي ريشه كما انها تفر كالدوري من اشعار

نزار قباني ... وهي ، هذه الفنائية في قلب اشعار نازك الملائكة وبدر

شاعر السياب كما انها اغنى ما في قصائد ادونيس الاولى وقصائد فدوى

طوقان بل وقصائد شعراء فلسطين الجدد والمجددين .

من هنا تأتي أهمية الفصل ما بين الفنائية وبين الوزن والقافية،

٥ - من قصيدة (لن ابكي) فدوى طوقان . الاداب العدد (٤) ١٩٦٨ .

وهنا يكمن خطر اقامة الجدران حول وبين المفاهيم الشعرية ، لكن السؤال مازال مطروحا :

هذا الشعر ، الشعر الذي نتدفقه ونبحث عن تعريفه ماهو ؟
اهو موسيقى ام تصوير ام محاكاة ؟ اهو نزهة عين ام طفرة حس
ام صعود فكر على مدارج فكر معرفسة ؟ ام هو رؤيا ؟ تراه يجمع
معا كل هذه الخصائص ام ينفرد بوحدة منها ؟
والشاعر ، اين موطن الشاعر ومن اين يصطاد الشعر ؟ تراه
يحيا داخل الزمان ام خارجه ام بين بين ؟

والقصيدة ، تراها مجموعة ابيات تربطها وحدة القافية ام هي
ثورة على القافية قصد الحصول على وحدة القصيدة من خلال وحدة
الموضوع ، ولماذا وحدة الموضوع ؟

نحن نعرف اليوم بان الوزن لايبني القصيدة ، وان القوافي مهمما
رقت وعذبت ، تظل قاصرة بمفردها عن خلق المناخات الشعرية .
ونحن نعرف اليوم عمق الصلة ما بين الشكل والمحتوى ، اننا نمل
القصائد القائمة على التلاعب اللفظي ، نؤخذ بالشعر الذي يختزن
تجاربنا الانسانية ، ومن هنا كانت ثورة الشاعر العربي الحديث على
قصائد المديح والترجي والتضرع ، يعني ثورته على الكذب والمراعاة :
اصبت بالقرف (1)

منكم ، ومن اشعاركم : ياماسحي احذية الملوك
ياخنافس الخنزف

ان الشاعر العربي المعاصر ، والمثقف العربي بشكل عام ، في
بحث دائم عن النبرة الصادقة حيث تتعاقب القدرة الفنية المبدعة
مع المعاناة الانسانية ، وربما كان هذا رد فعل طبيعيا على قرون التوقوع
والتيقنة ..

لكننا لاندرى اذا كان الشعر العربي بامتياز هو ، اليوم ، شعمر
التوتر الخارق ما بين الاطراف ، ففي هذا التوتر علامة الاستقصاء الاغنى
والاقصى . وفيه دعوة الى ان يكون الشعر تجربة كلية تتعاقب فيها
الشهادة بالموت والشهادة بالنطق : تجربة تتخطى تناقضات الفكر
والحياة معا ، وتكون بشارة خلاص من الوضع الانساني الميت ، بشارة
بنهاية الانسان القديم من اجل ولادة انسان جديد آخر ، يكون الطبيعة
وما وراءها ، الحضور في آن (2).

هذه المحاولة في تعريف مايجب ان يكون عليه الشعر العربي
الحديث تصلح للتعميم الى محاولة لتعريف مايجب ان تكون عليه ثقافتنا
العربية المعاصرة ، لكنها ، وفي كلا الحالتين ، تظل محاولة تعريف المثال
وفي هذا نوع من الانفصال عن الواقع الحي ومن التعالي ومن الشموخ
النيئشوي المطلق .

ان يكون الشعر العربي ، اليوم ، شعر توتر ، وان يكون الفلق
احد ظواهر ثقافتنا العربية المعاصرة ، فهذا حكم صحيح نكتشف صحته
حالما نمود الى انتاج مثقفينا المعاصرين ، انه ظاهرة صعبة وعافية ، سيما
واننا لم نستورده مع كتب كامو وسارتر ومورافيا ، بل احسنناه يسري
في عروق وجودنا الحي :

انه قلق الانسان العربي الذي يريد الحياة بهويته القومية التي
تحرسها وترونها وتنميتها ثقافته الوطنية ، لكنه يريد ايضا اعلان حضوره
في القرن العشرين ، قرن المدنية التي تقوم على العمل المشترك
بين الامم .

هذا القلق المبدع ليس قلق ثقافتنا المعاصرة فحسب ، انه قلق
ثقافتنا العربية ابان نهضتنا الاولى ، قلق عبد الرحمن الكواكبي الذي
حاكى مؤسسات الشرق ، وقلق اديب اسحق الذي حاكى مؤسسات
الغرب ، انه قلق الطهطاوي والبيستاني وطاهر الجزائري واليازجي ...
قلقهم جميعا يوم بداوا يستنشقون الهواء الطلق ويوم بداوا يتحسسون
ابعاد الظلم والجهل ، ويوم اخنوا يستشرفون ارضفة الخلاص ، ويوم

١ - عبدالوهاب البياتي : اقوال - كلمات لا تموت - بيروت ١٩٦٠

٢ - ادونيس : بيان ه حزيران . الاداب .

بداوا يطالبون بالحرية ويوم عرفوا بان حرية المثقف تعني مسؤوليته
امام الحياة .

ثم ان هذا التوتر ، هذا التوتر المبدع ، كان ذلك الاحساس المأسوي
الذي عاناه جبران خليل جبران ، آه ، كيف ننسى جبران وكيف نجور
على مي زيادة التي عانت من الظلمات والتي طاردت طوال حياتها اشعة
الحياة الجديدة ؟!

واما تلك التجربة الكلية حيث تتعاقب الشهادة بالموت والشهادة
بالنطق ، فهي تذكرني ببيت المتنبي الجميل :

ان القليل مضرج بدموعه مثل القليل مضرجا بدمائه
اذا نحن قربناها من الواقع تفدو طلبا بالالتزام ، واذا لزنناها
نحو الفكر تحولت الى مثالية مطلقة ، انها تتوق لتخطي تناقضات الفكر
والحياة معا ..

لكن ماهو الفكر وما هي الحياة ؟ ترانا نستطيع الكلام عن اماره
الفكر وعن جمهوية الحياة ؟ اليس الفكر وليد الحياة ، شأنه في ذلك
شأن الفعل ؟

انه الفكر ، على ما اعرف واعتقد ، ممارسة حية ، نشاط اجتماعي
يخضع لظروف الزمان والمكان ، ومن هنا ياتي اعتقادنا ، بانه يستحيل
على الفكر العظيم ان يصنع وحده القضايا العظيمة ، انه من جملة
الاسباب الاساسية لكنه ليس بالسبب الكافي .

لقد كانت افكار مونتسكيو وفولتير وروسو وديدرو وغيرهم سببا
في اندلاع الثورة الفرنسية لكنها لم تكن السبب الاساسي الكافي ، وهكذا
بالنسبة لثورة اكتوبر الروسية وثورة الصين وثورات العالم الثالث .
حتى تتخطى حدود الثقافة التقليدية وحتى ننتعق من الفكر
القديم ، علينا بالعمل على تخطي الارضية (الاجتماعية - الاقتصادية)
التي تطلعا في الثقافة التقليدية والتي تنمو وترعرع فيها الفكر القديم .
مرة اخرى نقول بان اديب النهضة العربية قد طرحوا بشكل او
بآخر هذه الاسئلة ، وانهم تدمروا مثلنا واحيانا بطريقة افضل واجرا
من طرقتنا ، لقد عانوا من الحاح الرؤيا ومن بربقها امام هزال الواقع
الساكن وعانوا من تقصير الحاضر السبب عن اللحاق بالمستقبل الافضل
ثم عانوا من سوء الفهم ومن عدمه .

بعد مئة عام ، مازال رجال الفكر العربي في قلب ذات المعاناة ،
لماذا ؟ لان الكلمات ، مهما عظم شأن الكلمات ، لا تكفي وحدها للهدم
وتعويضها العوامل الحياتية الاخرى حتى تأخذ مكانها في البناء .

ما لم نققه العلاقة الجدلية الوثيقة ما بين الفكر والواقع ، فنستظل
نوراننا الثقافية اقرب الى الطفرات الانية ، التي لا تلبث ان تتحول
الى ثرثرة عابثة او توتر حاد يدفعنا الى تفسير تشكيلة الكلمات ..

ان ما نريده لثقافتنا العربية المعاصرة ، هو متابعة الدرب المؤدية
الى قلب الانسان والى واقعه ، فقلب هذا الكائن يختزن انبل ما يصيبو
الى صياغته الفنان ، ومن واقع هذا الكائن ، من هذا الواقع الانساني
تنهل كل الثقافات الحية ومنها ثقافتنا العربية .

عدنان ابراهيم

باريس

منشورات دار الاداب

تطلب في

الدار البيضاء (المغرب)

من

مكتبة دار العلم

للنشر والتوزيع

٤ شارع الملكي - الاحباس

تلفون ٦٢٣٠٩